

الحدأة في تجربة التنمية العمانية

سعاد بنت محمد بن علي بن سليمان *

شهدت عاصمتان عربيتان هما بيروت والقاهرة تظاهرة ثقافية مؤخرًا في 9 و 11 من ديسمبر 2005م تعتبر الأولى من نوعها لمدّ جسر التواصل الثقافي والحضاري والفكري والجغرافي بين الدول والثقافات والحضارات. قدمت المناسبتان تجربة سلطنة عمان التنموية، وركزت على حركة التحديث والانتقال للدولة العصرية فيها. ونشرت الندوتان الحقائق بموضوعية، ففي بيروت نظم اتحاد المؤرخين العرب بالتعاون مع وزارة الإعلام العمانية ندوة "عمان 35 عاما من التنمية المستدامة". وتناولت أوراق العمل المقدمة في الندوة محاور متعددة، وتطرقت إلى مباحث مختلفة توضح حركة النهضة والتحديث التي شهدتها سلطنة عمان خلال 35 عاما الماضية فسلطت الضوء على عمان بين الأمس واليوم، والتحديث الذي انتقل بسلطنة عمان إلى دولة عصرية. أما في القاهرة فقد كانت التظاهرة إعلامية فكرية أقيمت بتنظيم من جمعية المراسلين الأجانب بالقاهرة لأعمال "ندوة عمان نظرة مستقبلية لدولة عصرية". وتناولت أوراق العمل أبعاداً ومباحث كثيرة منها: كلمة الرئيس حسني مبارك، و عمان بين الماضي والحاضر، ونهضة حديثة لعمان، ورؤى واضحة للأولويات، والمرأة العمانية بين الماضي والحاضر. وقد تناولت الندوتان التحديث الذي نقل سلطنة عمان إلى دولة عصرية.

قبل السبعينات كانت عُمان تحتضن مجتمعاً يعيش بمعزل عن العالم، ويمارس أفراده عادات وأعرافاً تقليدية، وتعاني من مشاكل اقتصادية واجتماعية، وتمزقها الحروب الأهلية المدمرة (1). ومنذ تولى السلطان قابوس ابن سعيد مقاليد الحكم في عام 1970م سعى إلى بناء دولة عصرية، ودعا المواطنين كافة من داخل عمان وخارجها بمعتقداتهم السياسية المختلفة إلى المشاركة في التنمية مقدماً القدوة في التسامح وسعى كذلك إلى توطيد مكانة السلطنة إقليمياً وعربياً وعالمياً. وكما ذكر الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون أن الإنسان صانع بطبيعته، فهو يصنع الأشياء ويصنع نفسه ولكن كيف يقاود يقوم بصناعة شعب ومجتمع ودولة يغلب عليه الأمن والسلام ولا يكتفي بذلك بل يصدر ثقافة التسامح والسلام إلى العالم من حوله. فالسلطنة انتهجت نهج السلام، وأمنت بضرورة العمل من أجل عالم أفضل يسوده الأمن والاستقرار (2)، وعلى الصعيد المحلي قدمت خبرة واسعة في مجال التسامح. فخبرة المصالحة الوطنية لا مثيل لها في أي دولة عربية، فالسلطان قابوس تسلم مقاليد الحكم في ظروف انقسام، فلّم الشمل وتجاوز عن أخطاء الماضي وأبدى رغبة صادقة في بدء صفحة جديدة مهدت لعمان انطلاقة جديدة (3). أما المنهج السياسي الخارجي لم يختلف كثيراً عن الداخلي. فالمنهج الواضح المعالم تبنى الحوار أساساً للتفاوض السلمي لرسم الحدود مع دول الجوار (4)، وقام بدور مهم في الحفاظ على مقدرات الأمة العربية والإسلامية من خلال الحرص على حل المشكلات بين الدول

العربية والإسلامية بالسلم والحيلولة دون تعمق الخلافات والمشكلات مما مكن لعمان أن تتبوأ مكانة مرموقة على الصعيدين الإقليمي والدولي(5). فنهج الحكمة والرؤية الإستراتيجية التي تتبعها سلطنة عُمان أعادت علاقات السلطنة مع دول العالم الخارجي، والدور الذي تقوم به على وجه الخصوص سواء في مجلس التعاون الخليجي أو جامعة الدول العربية أو في دعمها لعملية السلام في الشرق الأوسط، كل ذلك قد أسهم في الحفاظ على الاستقرار في المنطقة(6)، وكان لذلك النهج أثر لا-ينكر في إعادة توحيد الصف العربي وفي المضي قُدماً في درب السلام(7)، فاكتملت السلطنة احتراماً إقليمياً ودولياً واسعاً(8).

وللحفاظ على الهوية العمانية ضمن حركة التحديث جمع قائد البلاد بين الأصالة والتقاليد والاستفادة من تجارب التحديث العالمية(9). وليس من السهل إنتاج ثقافة كما ذكر موريس غودلييه، فقيادة عمان السياسية المتتورة ابتكرت مقولات من التحديث التدريجي تتلاءم مع طبيعة المجتمع العماني(10)، استندت وحركة التحديث في سلطنة عمان إلى مقولات نظرية مستوحاة من تقاليد عمان بالدرجة الأولى، مع انفتاح مدروس ومبرمج على تجارب التحديث في الدول الأخرى الغربية منها والآسيوية على حد سواء(11). وتعتبر التجربة العمانية نموذجاً رائداً للمزاوجة بين الانفتاح على الخارج والحفاظ على الهوية كالمزاوجة بين الموسيقى الشرقية من جهة والاوركسترا والسيمفونيات من جهة ثانية بفضل التوجيهات السامية(12). كما تم جمع كل ما يتعلق بإرث الحضارة العمانية وتراثها العريق والقيم العمانية الأصيلة التي يتم تعليمها للجيل الناشئ والحفاظ عليه بشكل حضاري ونهج علمي.

وتتميز الثقافة العمانية بالأصالة العريقة والتراث العماني خاصة والعربي الاسلامي عامة حيث تتخللها الحداثة المعاصرة لتكون جزءاً من العالم تتأثر به وتؤثر فيه. فتجربة التحديث العمانية تميزت بالانطلاق من ايجابية التراثين الثقافي والحضري، فسمات التحديث فيها مستوحاة من تجربة خاصة ولها سماتها العمانية البحتة دون الاعتماد على أي شكل من أشكال الاقتباس السهل من الخارج على غرار ما قامت به غالبية الدول العربية منذ النهضة الأولى وحتى الآن، فجمعت عمان بين الأصالة والحداثة دون وضعهما في موقع التعارض(13).

وللعمانيين هوية اجتماعية وثقافية متميزة رغم أن المجتمع البشري متنوع وعميق وثرى في جوانبه الثقافية والاقتصادية والدينية، ومن المفاتيح المهمة لفهم الشخصية العمانية هو الرجوع إلى تاريخها الموهل في القدم وإلى الهجرات العديدة من وإلى السلطنة وغيرها من دول العالم(14)، والاختلاف والتعدد صيغ في إطار الوحدة الوطنية نتيجة رؤية القيادة الحكيمة للسلطنة التي استفادت من ثراء التنوع بعيداً عن التفرقة وكذلك عن طريق ترسيخ مبادئ التعاون والتماسك فيما بين العمانيين وتفعيل مشاركتهم في تحمل جهود التنمية وبناء الوطن، فالانسجام الثقافي العام في السلطنة تحكمه الكياسة وتضبطه الحكمة.

تعتبر المحافظة على الهوية العمانية من مميزات مسيرة النهضة العمانية؛ فالرؤى الواضحة للأولويات الخاصة بالتطوير والتحديث في إطار الاحتفاظ بروح هوية عمان

الأصل والحادثة يرجع إلى مقدره خاصة تميزت بها عمان(15). ففي الوقت التي تسعى فيه إلى مواكبة العصر عبر بناء وتشبيد وتعمير وتنمية شاملة في المجالات كافة - فإنها تحافظ في الوقت ذاته على خصوصية وهوية التراث العماني والثقافة العمانية وهو الأمر الذي يؤكد على أن الحضارات لا- تتصارع وانما تتحاور وتتمازج وتتساند لتشكل في مجملها مجالاً أرحب يتسع لتعيش شعوب العالم في أمن واستقرار(16).

مفهوم المشاركة السياسية للمواطنين لم يكن واضحاً في عمان وحتى في منطقة الخليج العربي قبل السبعينات، وتطور مع بناء الدولة العصرية الحديثة منذ عام 1970م، ليس كمجرد مفهوم بل كأسلوب عمل ومحور أساسي للتطور السياسي على نحو تدريجي وصيغ في إطار نهج الشورى العماني، وبما يناسب المجتمع العماني والقيم العمانية والثقافة العمانية، وقد صيغ التدرج صيغ في مراحل زمنية معينة بدأت بالتعيين حتى الوصول إلى دوائر الانتخاب. ونصّ النظام الأساسي للدولة في عام 1996م على تأسيس برلمان باسم مجلس عمان يتكون من مجلسين هما مجلس الشورى ومجلس الدولة. يتم تعيين أعضاء مجلس الدولة، بينما ينتخب أعضاء مجلس الشورى بغالبية الأصوات عن طريق الانتخابات العامة ويحق فيها لكل مواطن عماني رجلاً- كان أو امرأة الانتخاب والتصويت والترشح(17). تمثل المرأة العمانية فيها نسبة 14% وقد تقدمت منها على العدد بالنسبة لتمثيل المرأة في البرلمان عن الدول الأخرى(18).

اعتمدت الحركة التنموية في سلطنة عمان - على مدى السنوات السابقة- على أسس أربعة حددها رأس الهرم في تنمية الموارد البشرية وتنمية الموارد الطبيعية، وإنشاء البنية التحتية وإقامة دولة المؤسسات. وتشكّل العقود الثلاثة الماضية فترات ومراحل التاريخ العماني الحديث لما تأسس فيها من إنجازات على رأسها تحقيق التنمية(19)، فما حققه جلالة السلطان يشبه المعجزة على صعيد التنمية في سلطنة عمان(20)؛ من تطوير للحكم وإرسائه على أسس راسخة واضحة ومحددة، وترسيخ للحكومة المؤسسية ذي هيكل تنظيمي للدولة والمؤسسات والمجالس والهيئات. وتحققت التنمية وفق مبادئٍ أتاحت الفرص كاملة لإعادة النسيج الاجتماعي والاندماج الوطني(21). وبُنيت دولة حديثة تستند إلى العلوم العصرية والتكنولوجيا وتؤمن المعرفة والخدمات الأساسية لجميع العمانيين(22). وقد أشار موريس جودلير كما أشرت من قبل إلى أن البشر يصنعون التاريخ وينتجون الثقافة ولكن قائد عمان صنع لعمان تاريخاً مشرقاً وأعاد لها أمجادها الماضية بالنهضة الشاملة والتنمية المستدامة التي تعاصرها في الوقت الحاضر، ولكن ليس من السهل إنتاج ثقافة والحفاظ على الهوية الأصيلة وبناء دولة عصرية حديثة وصناعة تاريخ والمضي على درب السلام.

الهوامش:

(* باحثة و أكاديمية من سلطنة عمان.

- 1- انظر: عُمان بين الأمس واليوم، ندوة سلطنة عمان و35 عاما من التنمية المستدامة.9 ديسمبر 2005م، بيروت، لبنان. انظر: مسعود ضاهر، عناصر الاستمرارية والتغير في تجربة التحديث العمانية، ندوة سلطنة عمان و35 عاما من التنمية المستدامة، 9 ديسمبر 2005م، بيروت، لبنان.
- 2- كلمة ألقاها وزير الإعلام المصري، ندوة عمان نظرة مستقبلية لدولة عصرية، 11 ديسمبر 2005م، القاهرة، مصر.
- 3- علي الدين هلال، عمان بين الماضي والحاضر، ندوة عمان نظرة مستقبلية لدولة عصرية، 11 ديسمبر 2005م، القاهرة، مصر.
- 4- مصدر سابق، هلال.
- 5- أسامة الباز، مداخلة تعلقت بمحور الصراعات المحلية والدولية، ندوة عمان نظرة مستقبلية لدولة عصرية، 11 ديسمبر 2005م، القاهرة، مصر.
- 6- المفكر والكاتب الألماني أودو شتاينباخ مدير المعهد الألماني للشرق الأوسط والأقصى في هامبورخ، ندوة عمان نظرة مستقبلية لدولة عصرية، 11 ديسمبر 2005م، القاهرة، مصر.
- 7- مصدر سابق، الفقي.
- 8- الكاتب الروسي سيرجي بليخانوف، مؤلف كتاب مصلح على العرش: قابوس بن سعيد سلطان عمان، العمانية للتوزيع والتسويق.
- 9- عمر حلبب، ندوة سلطنة عمان و35 عاما من التنمية المستدامة، 9 ديسمبر 2005م، بيروت، لبنان.
- 10- المصدر نفسه.
- 11- مصدر سابق، ضاهر.
- 12- مصدر سابق، هلال.
- 13- نفس سابق، ضاهر.
- 14- مصدر سابق، هلال.
- 15- مصدر سابق، الباز.
- 16- مصدر سابق، الفقي.
- 17- مصدر سابق، سليمان.
- 18- مشيرة الخطاب رئيسة مجلس الطفولة والأمومة بجامعة الدول العربية، المرأة

العمانية بين الماضي والحاضر، ندوة عمان نظرة مستقبلية لدولة عصرية، 11
ديسمبر 2005م، القاهرة، مصر.

19- مصدر سابق، الفقي.

20- مصدر سابق، هلال.

21- مصدر سابق، الفقي.

22- مصدر سابق، حالب.